قروية من بيت صفافا

بقلم : د. اسحاق موسى الحسيني

لقد حاولت ألف مرة أن امحو صورتها من ذهني فلم أستطع ، لا لأنها صورة بشعة ، ولكن لأنها تثير في نفسي مشاعر عجيبة . ترى لو كنت عرفتهـــا كما عرفتها أنا أتستطيع أن تنساها ؟ .

كانت قروية من (بيت صفافا) القرية القريبة من بيتي . كنت أراها كل صباح تحمل على رأسها جفنة كبيرة مثقلة بالخضرة والفواكه ، تدور بها على البيوت المجاورة في حي (البقعة التحتا) ، بائعة متجولة وتلك عادة القرويات الفلســـطينيات اللواتي يقطن القرى المجاورة للمدن . الرجل يفلح الأرض والمرأة تبيع الثمار .

وكانت ذات قامة فارعـــة ، وجسم مكتنز باللحم ، ووجه مســتطيل ترتسم عليه أخاديد عميقـــة ، ويدين كبيرتين خشنتين ، وثوب أزرق طويل ، وحذاءين قديمين أحاطت بهمـــا الرقع من كل جانب .

واعتدت كل صباح أن أنهض مبكرا أعلف الدجاج والحمام وأسقي الأزهار في الحديقة . كان لي بين هذه المخلوقات الصامتة أصدقاء كثيرون . كنت أتفاهم معها دون أن يتكلم أحد منا . كنت أتفاهم مع الدجاجة بعينيها . وربما تعجب اذا قلت ان حديثا طويلا كان يدور بيننـا دون أن ينطلق من أحدنا صوت . هل حاولت أن تتأمل عيني دجاجة في أثنـاء حياتها ؟ حاول ذلك . سترى في عينيها حديثا . تأملها وهي تقبل عليك لتتناول الحب من يدك ، وهي تنقر الحب . وتأملها وهي تدعو فراخها . تأملها وهي تدور حولها . تأملها وهي تدور هنا وهنـاك قبل أن تلقى بيضها . واذا كنت لا تفهم حديثا ، فأنت الملوم لا هي .

وكنت أفهم حديث الوردة وهي ترفع رأسها رويدا رويدا في الصباح ، وهي تزيد احمرارا كل يوم ، وهي تمتص الماء من التراب ، وهي تتمخض عن بنيات حولها ، وهي تحني رأسها قبيل الغروب وهي تستر وجههـــا بالأوراق قبل أن تنام .

في الطبيعة أصدقاء كثيرون . ولافرق بينهم وبين الأصدقاء الآدميين الا النطق ولا اكتمك اني أحب الصمت ، وأحبه كثيرا جدا . وأوثره على النطق . وربما كان هذا هو سبب صداقتي للقروية ، أو من جملة الأسباب التي ربطتني بها .

كانت تضع أمامي الجفنة وتقول لي :

اختر ما تشاء . ثم تصمت . ولا تعود الى الكلام الا حين أسألها عن الثمن .

ولكن مع الأيام زاد عدد كلماتها . وفهمت منها بعد أشهر أنها تربى ولدين يتيمين خلفهما لها زوجها الذى مات فى ذروة شبابه دون أن يترك شيئا سوى رقعة صغيرة من الأرض وبيت صغير مؤلف من حجرتين ، احداهما للنوم ، والثانيةلتخزين الحنطة والشعير والبصل وما اليها مما تنبته الأرض .

وتركزت حياتها كلها فى شيئين اثنين لا ثالث لهما . استثمار الأرض بأوسع ما يمكن الاستثمار ، وتربية الولدين ليصبحا رجلين يملآن عينيها وقلبها بعد الفراغ الذى تركه زوجها .

وكانت تكافح فى صمت . تخرج كل يوم بخضرها وفاكهتها ، وتعودظهرا أو قبيل الظهر حاملة بعض حاجياتها من السوق .

ولم أحاول أن أتتبع حياتها فى القرية . ولكنى أستطيع أن أتخيل كيف تقضى أيامها ولياليها . فحياة القرية بسيطة . وهى نسخة مكررة من كتاب واحد . واذا قرأته مرة لم تعد محتاجا الى قراءته ثانية .

ودارت الأيام وصب اليهود النار على القرية ليمحوها من الوجود ، كما محوا عددا من القرى العربية الآمنة . و (بيت صفافا) مجاورة لمستعمرة يهودية صغيرة اسمها (نيكور حاييم) . بل ان بعض بيوت القرية متداخلة فى المستعمرة وبالعكس .

ولم يحترم سكان المستعمرة حرمة الجوار التى يحترمها جميع الخلق . ألم يرد فى كتابهم : « .. وأما مدن هؤلاء الشعوب التى يعطيك الرب الهك نصيبا فلا تستبق منها نسمة ما » ؟ ألم يسميهم غلاظا آثمين حين قال : « أذكر عبيدك ابراهيم واسحق ويعقوب . لا تلتفتالى غلاظة هذا الشعب واثمه وخطيئته » ؟

وكنت أسمع من بيتى أصوات المدافع الصغيرة والبندقيات ، وأشاهد لهيب النار . وكان من الطبيعى أن أفكر فى هذه القروية وولديها . ترى ماذا أصابهم ؟ هل هم أحياء ؟ وكيف يعيشون بعد أن انقطعت المواصلات بين القرية الوديعة والمدينة ؟ .

وفى فجر أحد الأيام قرع باب بيتى قرعا عنيفا . فهرعت الى النافذة استطلع الخبر فاذا القروية بقامتها الفارعة ووجها المستطيل ذى الأخاديد . ففتحت الباب واذا هى لا تحمل شيئا . واسترعى نظرى ، بدل الجفنة التى اعتدت رؤيتها ، ثوب جديد وحذاءان جديدان .

ظننت أنها زوجت ولديها . فقد كانت تحدثنى عن قرب زواجهما فى المدة الأخيرة ، وعن سرورها لبلوغهما سن الرجولة ، وعن اعدادها للزواج ، وعن ترك البيت للولدين يسكن كل منهما حجرة ، وتنام هى فى الصيف على السطح ، وفى الشتاء فى حجرة صغيرة استطاعت أن تبنيها مع ولديها ، وتضع فيها دجاجتها والشاة الوحيدة التى تملكها .

وبادرتنى القروية بصوت أجش عميق .

ـ أتعرف قائد المنطقة المسئول عن المجاهدين فيها ؟ .

ـ نعم ، أعرفه ·

ـ أتستطيع أن ترشدنى اليه ؟ ·

ـ أفى هذه الساعة ، وكل من حولنا وما حولنا نائم ، حتى الطيور والأزهار؟

وتأملت وجهها مستطلعا خبرها ·فلم يكن من عادتها المبادرة بالكلام · وحين صمتت قلت لها :

ـ وماذا تريدين من القائد ؟

ولمع فى عينيهـــا بريق كالشرر · وأطرقت برأسها ولم تتكلم · وحينئـذ قلت :

ـ أليس من حقى أن أعرف السبب فى هذه الظروف ؟ ·

ـ أرسلنى اليه بعض المجاهدين فى القرية برسالة عاجلة ·

ـ وما الرسالة ؟ ·

ـ يؤسفنى ألا أستطيع أن أزيد ·

ـ وكيف وصلت الى هنا ؟ ·

ـ تســللت من وسط الأشــجار وزحفت على يدى بعض الطريق ·

ثم صمتت · وأدركت أن من العبث اســتدراجها · فأخرجت ورقة وكتبت عليها عبارة موجزة للقائد الذى كان ينام فى منزل طبيب بالقــرب من منزلى · ودفعتها اليها · فذهبت مهرولة ، ولمعان الثــوب والحــذاءين يخطف بصرى ويدهشنى ·

ومرت ثلاثة أيام واطلاق النار متصل والقرية العربية المجاهدة تقابل النــار بالمثــل · ولم أكن أخرج الا نادرا · وكانت حوانيت الحى تفتح بضع ساعات ليتسوق السكان ثم تقفل ، ويغشى الحى صمت رهيب · ثم تستيقظ ألسنة النار كأنها شياطين هاربة ، ويدوى صــوت الرصاص متتابعا حينا ومتقطعا حينــا آخر · ويضع كل انسان يده على قلبــه متسائلا : ترى كم شهيدا حصد اليوم؟ وفى مساء أحد الايام قرع البــاب واذا بقائد المنطقة · فأدخلته وجلسنا نحتسى كوبا من الشاى · ورأيته صامتا على غير عادته · ووددت أن أســمع منه خبر القروية قبل كل شىء ·ولكنه لم يذكرها واضطررت الى سؤاله :

ـ هل وصلتك رسالتى مع القروية ؟

وصمت وأطرق برأسه · ففهمت أن شيئا محزنا قد حدث · ترى أهو من الأسرار الحربية ؟ وأخيرا فتح فمه ·

ـ أتعرفها من قبل ؟ ·

ـ نعم ·

ـ منذ كم سنة ؟ ·

ـ منذ سنوات ·

ـ أتعرف ولديها ؟ ·

ـ لا ·· ولكنى سمعت منهـا بعض أخبارهما ·

ووقف القائد ونظر من النــافذة وقال :

ـ أترى تلك البقعة من الارض ؟ هنا يرقد الولدان وأمهما ·

ثم صمت ·· وتولانى ذهول وصمت

ـ وكيف ؟

ـ كانا يقــاتلان دفاعا عن القرية ببندقيتهما واستشهدا فى وقت واحد· وأخذ زملاؤهما البندقيتين وأحضروهما لى · وجاءت أمهما من قبلك تطــالب

بالبندقيتين باعتبارهمـــا ملكا لها · وأعطيتهما لها · ولم يدر فى خلدى شىء مطلقا · فمن عادة القرى ـ كما تعرف ـ أن تحتفظ بسلاحها ولا تفرط ·

وتوقف قليلا ثم أتم ·

ـ أتعرف ماذا حـــدث بعد ذلك ؟ حملت البندقيتين وتوجهت الى البقعة التى سقط فيها ولداها ، ونامت عـــلى الارض ، وأخذت تطلق النار وحـدها ، تتصيد الآثمين المعتدين ، واستطاعت أن تسقط حارس البرج ، فقد رأينـــاه يهوى · اذ لم يكن يتوقع المفاجأة بعد أن توقف القتـــال وشرع كل فريق يجمع قتلاه وجرحاه · وظلت تطلق النار حتى قتلت فوق جثتى ولديها · انهم جميعا هناك · انهم خمسة · شـــابان وأم وبندقيتان ·

ونظر القائد الى البقعة ثم التفت الى وقال :

ـ لو روينا هذه الحادثة لظنها الناس قصة خيالية · أليس كذلك ؟ ·

ووقف الـــكلام فى حلقى كقطعة من صخر · واستمر هو :

ـ لقد محى بيت من بيوت القرية · وهذا ما يبغون · لأنهم لا يقاتلون كى يحكموا · ولكنهم يقاتلون كى يمحوا أمة من الوجود ليضعوا مكانها أمة أخرى · لو أن القروية أخبرتنى بنيتها لـــكنت أعددت معركة انتقامية · ولـــكنها لم تصبر · كان الدم يغلى فى جسمها كما يغلى الماء على النار ·

وصمت القائد وضغط فكيه ثم عاد ببصره الى البقعة ونظر نظرة طويلة ثم التفت الى فوجدنى أحملق ، أسبح فى خيالى لا بداية له ولا نهاية ، وقال :

ـ ماذا يدور فى رأسك ؟ ·

وايقظنى سؤاله من حانة تمزق قلبى تمزيقا ، وقلت :

ـ فى رأسى سؤال كبير ·· ولكن ليس هذا وقت سؤاله ·· أزيد أن أعرف منك لم كانت تلبس الثوب الجديد والحذاءين الجديدين فى ذلك الصباح ؟ لم تلبسهما قبلا ·

ـ وماذا تظن ؟ ·

ـ الذى أعرفه أنها كانت مقبلة عـلى تزويج ولديها · ثم فقدتهما ولباسـها الجديد بعد فقدهما يحيرنى ·

ـ وأطرق القائد ثم قال :

ـ أرادت أن تحتفل باستشهادهما · كانت أعدت الثوب والحذاءين للعرس · فاستعملتها فيما هو شبيه بالعرس عند القرويين · أليست هـــذه عادة العرب أيضا ؟ ·

واستولى علينا صمت طويل ·